KADHAYA TARIKHIA

قضايا تاريخية

ISNN :718X EISSN : 2802-6031

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/228

الأوقاف الإسلامية في نضال حمدان خوجة

Islamic Endowments in the Struggle of Hamdan Khoja

د/ بودن غانم *

مخبر الدراسات التاريخية والأثرية، المركز الجامعي– تيبازة (الجزائر)،

bouden.ghanem@cu-tipaza.dz

المجلد: 08 العدد: 02 السنة : 2023 الصفحات: 24-40

تاريخ الاستلام: 2023/11/19 تاريخ القبول: 25/ 12/2023 تاريخ النشر : 2023/12/30

* المؤلف المرسل : د/ بودن غانم

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مظهر من مظاهر المقاومة السياسية المبكرة لأعيان الجزائر ضد سلطات الاحتلال وتجاوزاتها في حق الشعب الجزائري ومقدساته الدينية، فقد عمل قادة جيش الاحتلال منذ سنة 1830 على محاربة الأوقاف الإسلامية والاستيلاء عليها وإدراجها ضمن سياستها الاستعمارية عن طريق مصادرتها واستغلال مداخيلها المالية وتسخيرها لخدمة الاستيطان، كما خضعت المساجد لعملية هدم وتحويل حسب مصالح الاحتلال دون النظر إلى تعهدات قائد الحملة العسكرية دي بورمون باحترام الدين الإسلامي.وأمام هذه السياسية التعسفية وقف أعيان الجزائر موقف الدفاع عن هذه المقدسات الإسلامية رغم وجود الاحتلال كأمر واقع، ومن أبرزهم حمدان خوجة الذي كان من أوائل من اصطدم بقادة جيش الاحتلال بشأن مسألة الأوقاف الإسلامية خلال السنوات الأولى للاحتلال، وكان قد أدرك مبكرا خطورة السياسة الاستعمارية على الأوقاف لما لها من تأثير على الحياة الاجتماعية والتعليمية والثقافية والاقتصادية للجزائريين وبالتالي على عنصر المقاومة الوطنية، وهو الأمر الذي تسبب في نفيه من الجزائر.

كلمات مفتاحية: الأوقاف، السياسة الاستعمارية، التشريعات، المصادرة، الاحتلال.

Abstract: This study aims to highlight a manifestation of the political resistance of Algerian notables against the violations of the occupation authorities against its Islamic sanctities, as they worked to fight Islamic endowments and confiscate them to serve the settlement, without regard to the pledges of the military campaign leader, de Bourmont, to respect the Islamic religion.

In the face of this arbitrary policy, the notables of Algeria took a stand in defense of these Islamic holy sites, the most prominent of whom was Hamdan Khoja, who was one of the first to clash with the leaders of the occupation army regarding the issue of Islamic endowments, and he had realized early on the danger of the colonial policy on endowments because of their impact on the lives of Algerians, which is the case. Which caused him to be exiled from Algeria.

Keywords: Endowments, colonial policy, legislation, confiscation, occupation.

مقدمة:

اتخذت الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر طابعا صليبيا واندرجت ضمن الصراع الحضاري القائم بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ومن هذا المنطلق فإن سلطات الاحتلال وضعت الأوقاف الإسلامية نصب أعينها وضمن أولوياتها في سياستها المنتهجة في الجزائر منذ بداية الاحتلال وذلك بالاستيلاء عليها وتسخيرها لخدمة الاستيطان ولضرب الجزائريين في عقيدتهم ومقدساتهم.

وأمام هذا التعسف والاعتداء على الأوقاف الإسلامية ارتفعت أصوات أعيان وعلماء الجزائر منددّة بتلك الاعتداءات وانتهاكات قادة جيش الاحتلال لمؤسسات الوقف بالاحتجاج والعرائض، ومن هؤلاء حمدان بن عثمان خوجة الذي جسّد بداية المقاومة السياسية ضد الممارسات الاستعمارية من خلال اتصاله بممثلي السلطات الفرنسية في الجزائر وباريس مدافعا على مصالح مواطنيه والأوقاف الإسلامية.

1- الأوقاف الإسلامية في ظل التشريعات الاستعمارية 1830-1833:

أدركت سلطات الاحتلال الفرنسي منذ البداية أهمية مؤسسات الأوقاف بالنسبة للمجتمع الجزائري في مجال التكافل الاجتماعي وأعمال البر والدور الاقتصادي والثقافي والتعليمي، وهو الأمر الذي يؤهله لأن تلعب دورا مهما في التصدي للمشروع الاستعماري فعملت على محاربتها والاستيلاء عليها وإدراجها ضمن المنظومة الإدارية الاستعمارية عن طريق المصادرة والتشريعات القانونية.

وقد لاحظ الفرنسيون منذ استيلائهم على مدينة الجزائر مدى ضخامة مداخيل مؤسسة بيت المال مما دفعهم إلى التدخل في شؤونها للاستحواذ عليها بحجة تنظيمها،[1] ونظرا لطابعها التنظيمي الإسلامي فإنهم رأووا فيها عقبة كأداء أمام السياسة الاستعمارية في مجال نقل ملكية الأراضي من الجزائريين إلى المستوطنين[2]، فقد وصفها بلونكي (Blanqui) – عضو المعهد الملكي الفرنسي- بأنها تمثل عقبة لا يمكن التغلب عليها أمام (الإصلاحات) الكبيرة التي يمكنها وحدها تحويل الأراضي التي احتلتها أسلحتنا إلى مستعمرة حقيقية،[3] عن طريق الاستيطان حيث كانت الأوقاف الإسلامية المجال المغري لجلب المستوطنين نظرا لكثرتها ولضخامة مداخيلها، فهي وسيلة جاذبة لرأس المال والعمالة الفرنسية إلى الجزائر، وهما أمران ضروريان لنجاح الاحتلال، فرأى منظرو الاحتلال أنه من الضروري تسهيل المعاملات العقارية[4] وإخضاع الأوقاف الإسلامية إلى القانون الفرنسي للتصرف فيها بحرية لصالح الاستيطان.

وتنفيذا لما سبق عمل قادة جيش الاحتلال على الاستيلاء على الأوقاف وتحويلها عن مقاصدها الأساسية المستمدة من الشريعة الإسلامية رغم ما ورد في البند الخامس لمعاهدة الاستسلام من تعهدات باحترام الدين

الإسلامي، حيث تم إنشاء مصلحة أملاك الدولة التي توكل لها مهمة مصادرة وإدارة أملاك الوقف[5] أين تبدأ عملية فرنسة الأوقاف قانونيا بإصدار تشريعات خاصة بها طيلة القرن التاسع عشر وذلك لتسهيل نقلها بحرية إلى المستوطنين بما يوفر الأراضي للاستيطان، ومن التشريعات القانونية في هذه الفترة نجد:

– قرار 8 سبتمبر 1830: نص على أن جميع العقارات (منازل، متاجر، حدائق، أراضي ومنشآت...) التي كان يشغلها في السابق موظفو الدولة العثمانية، وأوقاف مكة والمدينة، تدخل في مصالح أملاك الدولة[6]، وتُسيّر تحت الرقابة الفرنسية لتكون بذلك قد فتحت الطريق لهجرة المستعمرين الأوربيين إلى الجزائر،[7]

– قرار 7 ديسمبر 1830: أخضع الأوقاف الإسلامية تحت مراقبة المدير العام لمصلحة الأملاك العامة جيراردان مع إبقاء الوكلاء المسلمين[8]، كما يخوّل هذا القرار للأوربيين امتلاك الأوقاف عملا بتوصية كل من فوجرو وفلاندان الموظفان بمصلحة الأملاك العامة، وقد نص هذا القرار على:[9]

– مادة 1: جميع المنازل والمتاجر والحدائق والأراضي والمباني التي يخصص دخلها لمكة والمدينة المنورة، أو للمساجد، أو التي لها مهام خاصة أخرى، ستكون مسيّرة من قبل إدارة الأملاك العامة التي ستتلقى الدخل وستقوم بتسليمه لمن يهمه الأمر.

– مادة 4: سيقوم المفتون والقضاة والعلماء والمسؤولون الآخرون على إدارة تلك الممتلكات، في غضون ثلاثة أيام من تاريخ نشر المرسوم بتقديم سندات وصكوك الممتلكات والدفاتر والسجلات والمستندات المتعلقة بإدارتها وأسماء المستأجرين إلى مدير الأملاك العامة، والتي سيشيرون فيها إلى مبلغ الإيجار السنوي ووقت آخر دفعة.

– مادة 5:يرسل المفتون والقضاة والعلماء والمسؤولون الآخرون إلى مدير الأملاك العامة بيانًا بالنفقات التي تتعلق بصيانة وخدمة المساجد وأعمال الصدقات، والمصاريف الأخرى.

وما يلاحظ على هذا القرار أنه أدخل مؤسسة الأوقاف ومرافقها ومداخيلها تحت الإدارة المباشرة لمصلحة أملاك الدولة لتبدأ في تحويلها عن مهامها الأصلية وتصريفها بما يخدم الاستيطان، وهو ما دفع الجزائريين للاحتجاج مجددا مرتكزين على تعهدات الحكومة الفرنسية التي قطعها دي بورمون (de Bourmont) لهم. وكثرت الاحتجاجات مع تزايد الاعتداءات على الأوقاف من خلال استمرار التشريعات والمخططات الرامية للاستيلاء على الأوقاف مثل "مخطط جيرار دان" في 25 أكتوبر 1832 الذي وضع خطة لتصفية الأوقاف بوضعها تحت إشراف الإدارة الفرنسية، وهو ما أمكن للسلطات الفرنسية بالجزائر فرض رقابتها الفعلية على الأوقاف وتشكيل لجنة تسيرها تتألف من الوكلاء الجزائريين برئاسة المقتصد المدني الفرنسي، الذي أصبح يتصرف بكل حرية في 2000 وقف موزعة على 200 مؤسسة ومصلحة وقفية.

وبالإضافة إلى المؤسسات الوقفية المشار إليها فإن المساجد أيضا لم تسلم من المصادرة الاستعمارية والتهديم والتحويل، ففي سنة 1830 كان يوجد بمدينة الجزائر (138) جامعا كبيرا وصغيرا لم يُحتفظ إلا بـ (12) جامعا للعبادة، وانعكس ذلك على العديد من الوظائف الاقتصادية مثل الوظائف الحضرية وصيانة الينابيع والجوامع، وتوقفت المساعدة الاجتماعية لليتامى والوظائف المدرسية، وتحول سكان المدينة إلى متسولين وبائسين[10]، وفيما يلي مصير بعض المساجد التي تعرضت للتحويل والهدم خلال السنوات الثلاث الأولى للاحتلال:[11]

-جامع ستي مريم في شارع باب الواد الذي تم تخصيصه لأول مرة للمعتمدية العسكرية ليتم هدمه في سنة 1838 بسبب الخراب.

- مسجد سيدي الرحبي في شارع باب الواد، أحد المساجد السبعة العظيمة، تم تخصيصه سنة 1833 للصيدلية المركزية ثم تم هدمه.

- مسجد الشماعين في باب الواد، خصص لخدمة المعتمدية العسكرية، وفي سنة 1841 تم التخلي عنه ليتم هدمه سنة 1861.

- مسجد علي خوجة خصص لخدمة الجيش كمعسكر سنة 1830 إلى غاية سنة 1844 أين تم التخلي عنه.

- مسجد سيدي عمار التنسي حوّل إلى ثكنة عسكرية سنة 1830 ثم إلى مديرية المدفعية.

- مسجد سباط الحوت حوّل إلى مستودع للحبوب سنة 1830 ثم ثكنة عسكرية.

- مسجد عبدي باشا، ألحق بالثكنات العسكرية سنة 1830.

- مسجد القشاش حوّل إلى مستشفى مدني ثم أُلحق بالسلطات العسكرية.

- مسجد باب الجزيرة (باب الدزيرة)، تحول في سنة 1830 إلى ثكنة لسلاح الهندسة، وفي سنة 1834 تحول إلى مصلحة أملاك الدولة، التي تخلت عنه في 26 سبتمبر 1835.

- مسجد الميناء تم ضمه سنة 1830 لمباني الأميرالية.

- مسجد خضر باشا في باب عزون أُلحق بمستشفى خير الدين لست سنوات ثم هُدم سنة 1836.

- مسجد ميزو مورتو حوّل سنة 1830 إلى مستشفى عسكري ثم الإدارة المدنية ثم هُدم.

- مسجد كتشاوة أول المساجد التي تحولت إلى كنائس.

- مسجد علي بتشين، خصص في البداية للصيدلية المركزية من سنة 1830 حتى سنة 1843 ثم تحول للإدارة المدنية ثم إلى العبادة الكاثوليكية.

- جامع السيدة: كان أول مسجد هُدم بالمطارق والفؤوس بأيدي الفرنسيين لتوسيع المجال وجعله تحت السلطات العسكرية، بالإضافة إلى تخوف الفرنسيين من اتخاذه كمركز للمظاهرات، وبدئ في تهديمه سنة 1830 وبقيت الصومعة قائمة إلى غاية نوفمبر 1832 أين تم إسقاطها عن طريق تلغيمها ونسفها.[12]

وهكذا فإن هذه الفترة شهدت حملة شرسة ضد الأوقاف الإسلامية بانتهاك حرمتها والاستيلاء عليها وعلى مواردها بما يتعارض مع معاهدة الاستسلام، وهو الأمر الذي أثار حفيظة الأعيان والعلماء الجزائريين فانبروا لإدارة الاحتلال مدافعين عنها، ومنهم حمدان خوجة حمل الهمّ الوطني وجابه قادة جيش الاحتلال محاولا حماية حقوق الجزائريين والدفاع عن المقدسات الدينية في الجزائر وفي فرنسا.

2- حمدان خوجة ونضاله ضد ممارسات جيش الاحتلال:

إن المكانة الاجتماعية لعائلة حمدان خوجة والتي جمعت بين الجاه والمال والنفوذ الإداري والمناصب السامية في الدولة أهّلته لِلعب دور سياسي مهم أثناء الاحتلال وبعده، فقد كان وسيطا بين الداي حسين ودي بورمون، ثم شغل منصب عضو المجلس البلدي بالعاصمة مما جعله أكثر احتكاكا بممثلي سلطات الاحتلال فبذل جهده في التخفيف من حدة الإجراءات الاستعمارية ضد الجزائريين وأملاكهم.

وهو بذلك يعتبر أول جزائري قاد أول مقاومة قلمية ضد الاستعمار،[13] وأول من دافع عن الكيان الجزائري، وعرّفه تعريفا حديثا، فهو عنده عاطفة شهامة لدى الجماعة الجزائرية تحركت عندما أصبحت تشعر بالاستبداد من أمة أجنبية. وأقام فكرة الكيان الجزائري في علاقته مع الكيان الفرنسي على الاختلاف في اللغة والدين والعادات والتقاليد مما يعطيه الحق في الوجود حرا مستقلا، وهذا ما جعل أبا القاسم سعد الله يعتبره أباً للحركة الوطنية الجزائرية بمعناها الحديث،[14] واعتبره مصطفى الأشرف الأب الروحي للحركة القومية الحضرية المعاصرة في صورتها المعتدلة.[15]

وخلال عمله في إدارة الاحتلال بين سنتي (1830-1833) رفض الموافقة على مشاريع رجال الاحتلال وأفعالهم، وامتنع أن يكون أداة في يد السياسة الفرنسية للتوسع على حساب الشعب الجزائري فواجه مشاكل تمثلت في الرقابة المشددة، ومصادرة الأملاك دون تعويض[16] فخاب ظنه وأدرك أن فرنسا جاءت لتبقى، بعدما كان باعتقاده بأن فرنسا ستعوض حكم الأتراك بحكم محلي خاصة بعد انتهاك معاهدة الاستسلام والمساس بالمقدسات الدينية والتضييق على العلماء[17] ونفيهم خارج البلاد مما جعله يقول "اللهم ظلم الترك ولا عدل الفرنسيين". فقد

كان يؤمن بالحل السياسي واحترام حقوق الشعب الجزائري في العيش تحت نظام ديمقراطي مما يضفي عليه الصفة النضالية المبكرة.

وقد بدأت مقاومته سرية ثم أعلن المعارضة بعد إمعان الفرنسيين في نقض بنود معاهدة الخامس جويلية 1830، والسلب والنهب مُشجَّعا بشكاوى المواطنين وعرائضهم التي طالبوا فيها بجلاء الجيش الفرنسي من الجزائر،[18] فأصبح ممثلا لمواطنيه وناطقا باسمهم أمام إدارة الاحتلال، الأمر الذي جعله يشكّل تيارا خاصا يطالب بمنح للجزائر شخصيتها وحريتها وكرامتها، ولم يألُ جهدا ولا تراخٍ في مطلبه من أجل مصلحة الجزائر،[19] فدعا فرنسا إلى انتهاج سياسة حكيمة في الجزائر تعكس أفكارها الليبرالية كدولة متحضّرة، وتخدم مصالحها أفضل من أن تجعل من الجزائر مستعمرة تابعة لها،[20] حيث كان يرى أنه من المهم أن يُحكم الجزائريون وفقا لمبادئ الحكومة الفرنسية، وألاّ تُمس ديانتهم.[21]

2- الأوقاف الإسلامية في نضال حمدان خوجة:

بحكم عضويته في المجلس البلدي لمدينة الجزائر، فقد أشرف حمدان خوجة على لجنة تقدير تعويضات الأملاك المصادرة، وكان غير متسامح في احتلال المساجد مما جعل الفرنسيين يحقدون عليه،[22] حيث شجب أعمال الاحتلال الفرنسي الدنيئة من تهديم المساجد، وقصر الجنينة، وتحويل المؤسسات الدينية إلى مستشفيات عسكرية، لأنه خرق للمعاهدات التي التزمت بها فرنسا، كما علّق على رغبة فرنسا في تنصير الجزائريين لترغيبهم في قبول الاحتلال حتى لا يبدون أي مقاومة ضد فرنسا،[23] حيث أدرك مبكرا خطورة السياسة الدينية الاستعمارية على تدجين المقاومة.

وقد حدد حمدان خوجة الأسباب الحقيقية لإقدام الحكومة الفرنسية على الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية في سببين رئيسيين، يتعلق الأول بدور بعض الموظفين الفرنسيين في ترغيب الحكومة على ذلك للحصول على ثروة طائلة في أسرع وقت على حساب الإنسانية وشرف الأمة، أما السبب الثاني فهو تشجيع الحكومة على إكمال مشروع الاحتلال والاحتفاظ بالجزائر لما تتوفر عليه من مداخيل كبيرة[24] بحكم أن الحكومة الفرنسية كانت لا تزال مترددة بشأن الاحتفاظ بالجزائر خاصة بعد ثورة جويلية 1830 وتغيّر نظام الحكم في فرنسا.

واعتمد في نشاطه السياسي على العرائض والشكاوى للمسؤولين الفرنسيين للاحتجاج ضد ممارسات إدارة الاحتلال التي استهدفت أملاك الوقف والزوايا، وتعطيل أحكام الشريعة الإسلامية منها احتجاجه لدى كلوزيل

(Clauzel) على خرق اتفاق 1830 فأجابه أن «فرنسا غير مجبرة على احترامه لأنه لم يكن سوى لعبة حرب»،[25] فأدرك استحالة سماع شكاويه في الجزائر لذلك نقل احتجاجاته إلى المسؤولين الفرنسيين في باريس فكان جريئا في مطالبه. ولما لم يحصل على أي نتيجة من مساعيه تساءل هل ينبغي أن نؤمن بأن مزايا المعاهدات لا تنالها إلا الشعوب القوية على حساب الشعوب الضعيفة؟ وعندها ماذا يكون مصير المبادئ الأخلاقية التي نرتكز عليها؟ لماذا يدرس القانون في أوربا وفرنسا؟[26]

عارض حمدان خوجة لمّا كان عضوا في مجلس بلدية الجزائر –في عهد دي بورمون– قرار تحويل بعض المساجد إلى مستشفيات للجيش بحجة أن تلك الأماكن معدة لأمور لا يمكن تغييرها، ورغم ذلك تم الاستيلاء عليها. وبيّن خوجة أن المسجد مكان مقدس لا يحق انتهاكه بالنسبة لجميع المسلمين، وهو مخصص لعبادات المسلمين فقط، وارتكز خوجة في معارضته للانتهاكات الفرنسية على معاهدة الاستسلام التي اعترفت في مادتها الخامسة باحترام الدين الإسلامي وما يتبعه من مؤسسات.[27] ففي مذكرة حررت في 2 فيفري 1833 كتب خوجة عن انتهاك حرمة المساجد التي حوّلت لمتاجر ومستشفيات، وذكر أن ثمانية مساجد كبيرة وأخرى صغيرة أصبحت محرّمة على السكان، وحُرم الفقراء والمساكين من أوقافها التي كانت تغيثهم من الفقر والحاجة[28] مما يعكس الدور الحيوي لهذه الأوقاف بالنسبة للمجتمع الجزائري. فقد بيّن حمدان خوجة أن الفقراء لم يعودوا يحصلون إلا على جزء من موارد هذه المؤسسات، أما الباقي فيُدفع إلى صندوق أملاك الدولة، «فقد وقع تغيير وجهة تلك الأوقاف، وحصل انتهاك لحقوق الإنسان، إن هذه الإجراءات الظالمة ولا أخلاقية، إنها تُدخل اليأس على سكان الإيالة، وتجعلهم يكرهون سائر الأوربيين بوجه عام، ويعتبرون كل من يحمل قبعة مسيحيا وبالتالي عدوا لشعوب إفريقيا».[29]

وقد استخدم حمدان خوجة خطابا ليّنا مستعطفا به المسؤولين الفرنسيين باسم الإنسانية والديمقراطية بحكم الغلبة، فقد عبّر في رسالة إلى كاتب مجلس الدولة في شهر ماي 1833 عن سعادته بوجود بلده تحت حماية الحكومة الفرنسية معتبرا نفسه من أخلص الأعيان لفرنسا[30] في محاولة منه الحصول على وعود بتخفيف الممارسات القمعية لجيش الاحتلال ضد الشعب الجزائري، وناشد الملك لويس فيليب بإنصاف الجزائريين لكي لا يعاني من قساوة التاريخ.

3– عرائض حمدان خوجة بشأن الأوقاف:

أخذت الأوقاف حيّزا مهما في نضال حمدان خوجة مما يعكس إدراكه خطورة استيلاء سلطات الاحتلال عليها وما ينجر عن ذلك من تأثيرات على المجتمع والتعليم والعقيدة، وقد سخّر كتاباته للدفاع عن القضية الوطنية والتنديد بممارسات الاحتلال، فكان كتابه المرآة أول وثيقة تستنكر فعل السلطات الفرنسية من المساجد والأضرحة وعظام الموتى، وأول من رفع عقيرته بالاحتجاج بالقلم على ذلك الفعل، ولو عاش بعد ذلك في الجزائر وشاهد ما ارتكب في عهد خلفاء كلوزيل لما سكت عن أفعالهم، ولترك ربما لنا تفاصيل مفيدة،[31] فقد كان مزامنا لأحداث النهب والقمع والمصادرة وملازما لقادة جيش الاحتلال بحكم وظيفته ومكانته. فقد تطرق في القسم الثاني من كتابه المرآة للأوقاف الإسلامية، وخصص لها الفصل الحادي عشر، كما تطرق لها في القسم الثالث من كتابه الذي خصصه لمختلف العرائض ومنها:

عريضة 1: في 3 جوان 1833 إلى المارشال سولت وزير الحرب:

بدأها بتذكير سولت بمعاهدة الاستسلام التي تلت دخول الفرنسيين والتي تعهدوا فيها بضمان أمن وحرمة المنقولات والعقارات وحرية ممارسة الشعائر الدينية والحفاظ على القوانين الجزائرية واحترام النساء والمساجد، وأول نقطة أثارها هي توقيف ونفي المفتي والقاضي للاستيلاء على أملاك مكة والمدينة المخصصة للفقراء واليتامى والأرامل بدون وجه حق، وطالب باستعادة تلك الأملاك وأموالها التي تم تحصيلها، وندد بتهديم المؤسسات الدينية والخيرية بحجة توسيع الشوارع مطالبا بتعويضات للأملاك المهدمة سواء كانت خاصة أو أملاك مكة والمدينة أو المساجد، وأعرب عن أسفه لاستمرار عمليات الهدم التي مسّت ربع مدينة الجزائر.[32]

كما ندد بتهديم جامع السيدة الذي كان من المساجد الرئيسية في مدينة الجزائر منذ القرن 16م،[33] واستنكر الاستيلاء على أبوابه وأعمدته الرخامية منتقدا طمع كلوزيل الذي أوهمه اليهود بأن جامع السيدة يحتوي على كنوز الداي فأدخل العمال للبحث وعندما لم يجد شيئا أمر بتهديمه لتغطية فضيحته،[34] كما ندد بالاستيلاء على مساجد أخرى تحت ذريعة تهيئة ساحة محتجا في ذلك بمعاهدة الاستسلام التي نصت على حماية الأماكن المقدسة، مبيّنا أنها أملاك لا يتصرف فيها أحد مهما كانت صفته، ولا يمكن تغيير هذا الأمر الذي يمتد لعصور قديمة وحافظت عليه أجيال متعاقبة، وصرح أنه من حق كل مسلم المطالبة باستعادة هذه الأملاك.[35]

وبيّن لوزير الحرب أنه بعد الاستيلاء على الزوايا والمساجد لم يبق للمسلمين إلا ربع الأماكن المقدسة، والثلاثة أرباع الأخرى وقعت في أيدي التجار وسلطات الاحتلال، ويجب إرجاعها على أساس معاهدة

الاستسلام[36] فهو يحاول الارتكاز سند قانوني ليجعل احتجاجاته مقبولة وشرعية، ويعمل على استثارة عاطفة الحكومة الفرنسية وشرفها، كما طالب بالتعويض عن الأضرار الناجمة عن الاحتلال وشتى المصادرات، ولتبرير احتجاجه بيّن أنه حتى المسلم لا يمكنه التمتع بهذه الأماكن إلا للصلاة أو التعليم، وضمّن عريضته احتجاجه على الاستيلاء على جامع كتشاوة ذو الطراز المعماري الفخم، وتحويله إلى كنيسة، وطالب بإعادته لحالته الأولى مشيرا على الحكومة الفرنسية أنه بإمكانها بناء كنيسة إذا شاءت بدلا من تنفير الشعب بالإساءة إلى دينه وتكدير سعادته بانتهاك معاهدة الاستسلام.[37]

ولم يهمل حمدان خوجة الزوايا في عريضته حيث ندد بالاستيلاء عليها كمؤسسات إحسان يلجأ إليها الفقراء وحتى الأغنياء في وقت الشدائد. وعبّر باسم الشعب الجزائري أن: «الفقراء يطالبون باستعادة هذه المؤسسات وسلطات الاحتلال لا يحق لها أخذها»، كما ندد بالاستيلاء على أضرحة المرابطين في مدينة الجزائر وخارجها، وقيام سلطات الاحتلال بتأجير بعضها للتجار لاستخدامها كمخازن وبعضها الآخر كسكنات. (أشار أثناء مغادرته مدينة الجزائر إلى الاستيلاء على ضريح المرابط سيدي الجودي وتأجيره بمائة فرنك)، مستهجنا هذا العمل: «كيف لهؤلاء أن يلحقوا العار بالأمة الفرنسية مقابل مبلغ زهيد» مؤكدا أن معاهدة الاستسلام أعطت لفرنسا القصبة وبعض الحصون وليس الأملاك الأخرى التي ضمنها شرف الأمة الفرنسية.[38]

ولتقوية حججه ضد ممارسات قادة جيش الاحتلال انتقد تمييزهم لليهود وتفضيلهم في المعاملة على المسلمين، وقارن بين مؤسساتهم الدينية التي لم تتعرض للهدم بل زاد عددها على عكس المسلمين الذين فقدوا معظم مساجدهم، وبيّن أن هذه المعاملة أثارت سخط المسلمين وجعلتهم ييأسون من كل خير من الحكومة الفرنسية.[39] لذلك شدّد على الوزير وطالبه بالنظر في الشكاوى المقدمة وليس تهدئتهم فقط بأنه سينظر فيها ويتحقق منها، وكتب مستغربا: «كيف يعتمد على معلومات الظالمين، وكيف للظالم أن يعترف بظلمه».[40]

عريضة 2: لوزير الحربية، باريس 9 جويلية 1833

بعد مرور شهر على العريضة الأولى لم يجد حمدان خوجة استجابة لمطالبه، فلم ييأس من ذلك بل جدّد مطالبه لوزير الحربية في عريضة ثانية ملتمسا عدالة وشرف فرنسا من أجل تخفيف مصائب الجزائريين في ظل استمرار عمليات الهدم،[41] مما يعكس إصراره على تحمل مسؤوليته الوطنية إزاء مواطنيه وتفانيه في الدفاع عن حقوقهم.

فطالب باستعادة المساجد التي استنكر تحويلها إلى مخازن، ودعا ممثلي سلطات الاحتلال إلى البحث عن أماكن أخرى ملائمة لأغراضهم عوض المساجد المخصصة لعبادة المسلمين، كما طالب باحترام أضرحة المرابطين التي تم الاعتداء عليها مبيّنا أنها تمس أعراف وعادات الشعب وتمثل الحياة المعنوية له.[42]

وبعد عدم تجاوب وزير الحربية مع مطالبه صعّد حمدان خوجة مستوى الخطاب وتوجّه إلى الملك الفرنسي لويس فيليب في عريضة بتاريخ 10 جويلية 1833، وخاطبه باسم العدالة والإنسانية من أجل إنصاف الجزائريين مبيّنا له أن: «بلدنا كان مهد الازدهار والهدوء، لكن في هذه السنوات الثلاث أصبح مسرحا للرعب والاضطهاد، وقد قدّمت منذ قدومي لباريس عريضة لمطالب مواطني من أجل تخفيف مصائبهم»،[43] ومما يعكس الصعوبات التي كابدها حمدان خوجة كتابته عن تخوّفه من الملاحقات البوليسية والتي أثّرت على عدم ذكره لجميع انتهاكات الفرنسيين في الجزائر، فكتب: «لو كان بإمكاني أن أعرض للجميع ما أستطيع ذكره دون أن أُضطهد لقدمت أشياء كثيرة، ولكني في عالم مجهول ولا أدري أين توجد المصائب، إنني أخشى أن أنال مصير عدد من مواطني، أن أُسجن ما بقي لي من أيام أو أن أُبعد عن أسرتي وبلادي، ومن يدري لعلي اتهم بالتآمر مع القبائل».[44]

أثبتت المصادر أن خوجة كان رجلا غير عادي، وقام بدور إيجابي في سبيل تحرير وطنه من الاحتلال، وهو دور كان رائدا في العمل السياسي الذي لم تعرفه الجزائر إلا متأخرا،[45] حيث مثّل فكره مظهرا مبكّرا من مظاهر التطور السياسي في الجزائر[46]

خاتمة:

يعتبر حمدان خوجة رائدا من رواد النضال السياسي في الجزائر خلال القرن التاسع عشر، إذ كان له دور كبير حصول الجزائريين على تعهد فرنسا باحترام دين وعوائد الجزائريين، وعندما لم تلتزم فرنسا بذلك سخّر قلمه وعلاقاته في الجزائر وفرنسا من أجل الدفاع عن الأوقاف الإسلامية التي اعتبرها أكبر دعائم المجتمع الجزائري لدورها الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي، ولم يألُ جهدا في السعي لأجل حمايتها واسترجاعها دون أن يتمكن من ذلك نظرا لنفيه من الجزائر لكنه جسّد روح المقاومة السلمية التي أبانت عن تمسك الجزائري بدينه ووطنه وإدراكه خطورة السياسة الاستعمارية وأبعادها.

الهوامش:

[1]- ناصر الدين سعيدوني: **دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة**، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص 273.

[2]- Sautayra et Cherbonneau: **Du statut personnel et des successions**, t2, Maisonneuve et cle, libraires-éditeurs, Paris,1874, p 375.

[3]- Blanqui: **Algérie**. **Rapport sur la situation économique de nos possessions dans le nord de l'Afrique**, Coquebert éditeur, Paris, 1840, p 28.

[4]- Jean Terras: **Essai sur les biens habous en Algérie et en Tunisie, étude de législation coloniale**, thèse pour le doctorat, faculté de droit, Lyon, 1899, p 158.

[5]- Aumerat: **La propriété urbaine a Alger**, revue Africaine, n228, 1898, p 168.

[6]- Aumerat: **Op-cit**, revue Africaine, n228, 1898, p 168.

[7]- يحي بوعزيز: **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 7.

[8]- ناصر الدين سعيدوني **المرجع السابق**، ص 251.

[9]- Aumerat: **Op-cit**, p 170-171.

وينظر أيضا:

Jean Terras: : **Op-cit**,p 101.

و

Albert Devoulx: **Op-cit**, p 44:

[10]- العربي إيشبودان: **مدينة الجزائر تاريخ عاصمة**، تر: جناح مسعود، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 162.

[11]- Aumerat: **Op-cit**, p p 181-187.

[12]- Albert Devoulx: **0p-cit**, p 156.

[13]- أحمد توفيق المدني: **هذه هي الجزائر**، مكتبة النهضة المصرية، د ت، ص 158.

[14]- أبو القاسم سعد الله:**الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930**، ج 2، ط 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992، ص 69.

[15]- مصطفى الأشرف: **الجزائر الأمة والمجتمع**، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 208.

[16]- احميدة عميراوي: **قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث**، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2005. ص 106.

[17]- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 4، ط 1، دار الغرب الإسلامي**، بيروت، 1998، ص 349.

[18]- عبد المجيد بن عدة: **«رائد المقاومة السياسية الحديثة في الجزائر السيد حمدان خوجة(1773-1845)»**، حوليات التاريخ والجغرافيا، ع3، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، (ماي 2011)، ص 11.

[19]- محمد الطيب لعقاب: **حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي**، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص 5.

[20] -Hamdan Ben Othman Khoja: **Aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger**, t1, imprimerie Geoetschy fils et compagnie, Paris, 1833, p 325.

[21]- يسمينة زمولي: **«الفكر التنويري العربي في القرن 19م. حمدان بن عثمان خوجة ورافع رفاعة الطهطاوي نموذجا»**، مجلة العلوم الإنسانية، ع 41، مجلد ب، جامعة قسنطينة1، (جوان 2014)، ص 39.

[22]-أبو القاسم سعد الله: **محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال**، ط3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 79-80.

[23]- محمد الطيب لعقاب: **المرجع السابق**، ص 37-38.

[24]- حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة**، ، تقديم وتعريب: محمد العربي الزبيري، منشورات Anep، الجزائر، 2005، ص 233-244.

[25]- Georges Yver: **«Si Hamdan Ben Othman khodja»**, R .A, n 288, (1er trimestre 1913), imprimeur-libraire de l'université, Alger, p 138.

[26]- حمدان بن عثمان خوجة: **المرجع السابق**، ص 255.

[27]- نفسه، ص 248-249.

[28]- محمد الطيب لعقاب: **المرجع السابق**، ص 59.

[29]- حمدان بن عثمان خوجة: **المرجع السابق**، ص 239-240.

[30]- Hamdan Ben Othman Khoja: **0p-cit**, p 373.

[31]- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 5، ط 1، دار الغرب الإسلامي**، بيروت، 1998، ص 8.

[32]- Hamdan Ben Othman Khoja: **0p-cit**, p 328-329.

[33]- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 5، ص 13.

[34]- حمدان خوجة: **المرجع السابق**، ص 247.

[35]- Hamdan Ben Othman Khoja: **0p-cit**, p 330-331.

[36]- **ibid**, p 331.

[37]- **ibid** p 331-332.

[38]- Hamdan Ben Othman Khoja: **0p-cit**, p p 332-334.

[39]- **ibid**, p 348.

[40]- **ibid**, p 349.

[41]- **ibid**, p 352-353.

[42]- **ibid**, p 354-355.

[43]- Hamdan Ben Othman Khoja: **0p-cit**, p 361-362.

[44]- حمدان خوجة: **المرجع السابق**، ص 255.

[45]- أبو القاسم سعد الله: **تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 7، ط 1، دار الغرب الإسلامي**، بيروت، 1998، ص 397.

[46]-Georges Yver: **0p-cit**, p 119.

قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

- إيشبودان، العربي، 2007، مدينة الجزائر تاريخ عاصمة، تر: جناح مسعود، الجزائر، دار القصبة للنشر.

- الأشرف، مصطفى، 2007، الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، الجزائر، دار القصبة للنشر.

- بن عدة، عبد المجيد، (أفريل 2007)، «رائد المقاومة السياسية الحديثةفي الجزائر السيد حمدان خوجة(1773-1845)»، حوليات التاريخ والجغرافيا، ع3، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة.

- بوعزيز، يحي، 2007، سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

- خوجة، حمدان بن عثمان، 2005، المرآة، ، تقديم وتعريب: محمد العربي الزبيري، الجزائر، منشورات Anep.

- زمولي، يسمينة، (جوان 2014)، «الفكر التنويري العربي في القرن 19م. حمدان بن عثمان خوجة ورافع رفاعة الطهطاوي نموذجا»، مجلة العلوم الإنسانية، مجلد ب، ع 41، جامعة قسنطينة1.

- سعد الله، أبو القاسم، 1992، الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج 2، ط 4، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

-سعد الله أبو القاسم، 1998، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 5، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- سعد الله أبو القاسم، 1998، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 4، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- سعد الله أبو القاسم، 1998، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، ج 7، ط 1، بيروت،دار الغرب الإسلامي.

- سعد الله أبو القاسم، 1982، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال، ط3، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

- سعيدوني، ناصر الدين، 2001، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، الفترة الحديثة، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

- عميراوي، احميدة، 2005، قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، ، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.

- لعقاب، محمد الطيب، 2007، حمدان خوجة رائد التجديد الإسلامي، الجزائر، وزارة الثقافة.

- المدني، أحمد توفيق، د ت، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية.

باللغة الأجنبية:

Sautayra et Cherbonneau, 1874, **Du statut personnel et des successions**, t2, Paris, Maisonneuve et cle, libraires-éditeurs.

Blanqui, 1840, **Algérie**. **Rapport sur la situation économique de nos possessions dans le nord de l'Afrique**, Paris, Coquebert éditeur.

Aumerat, 1898, **La propriété urbaine a Alger**, revue Africaine, n228.

Devoulx, Albert, 1870, **Les édifices religieux de l'ancien Alger**, Alger, Typographie Bastide.

Terras, Jean, 1899, **Essai sur les biens habous en Algérie et en Tunisie**, **étude de législation coloniale**, thèse pour le doctorat, faculté de droit, Lyon.

Khoja, Hamdan Ben Othman, 1833, **Aperçu historique et statistique sur la régence d'Alger**, t1, Paris, imprimerie Geoetschy fils et compagnie.

Yver, Georges, (1er trimestre 1913), **«Si Hamdan Ben Othman khodja»**, R .A, n 288, Alger, imprimeur-libraire de l'université.